مدارس علم النفس المعاصرة

تأليف العلامة : روبرت ودورث

ترجمة : الأستاذ كمال دسوقي

نشرته : دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٠

الكتاب الذي أقدمه اليوم لقراء العربية من وضع العلامة روبرت ودورث Robert Wodworth الذي ولد في بلخرتون من أعمال ماساتشوستس Massachusetts بأمريكا في ١٧ أكتوبر سنة ١٨٦٩ . وهو يحتوي على طائفة من المحاضرات ألقاها المؤلف سنوات عدة ، إبان اشتغاله بالتدريس في جامعة كولومبيا عنوانها « نظرة في علم النفس المعاصر » ونشرت بنيويورك لأول مرة سنة ١٩٣١ تحت هذا العنوان « مدارس علم النفس المعاصرة » .

ويحاول المؤلف في مستهل كتابه أن يحدد موضوعه وأن يرسم خططه الرئيسية ، فيقول في مقدمته « ويحاول هذا الكتاب أن يلقي نظرة موضوعية على علم النفس المعاصر ، بالقدر الذي يتعلق بمدارسه ، وما تضيء به للإنسانية من أنظار . وهو لا يريد أن يقدم آراء المؤلف الخاصة في أية صورة مذهبية ، وإن لم يمتنع عن شروح شخصية هنا وهناك . ثم هو لا يهدف إلى نقد شامل المدارس المختلفة ، ولا إلى تقدير عام حتى يتأدى بالقارىء إلى واحدة منها ويبعد به عن الأخرى ، وإن غرضه أن يقدم صورة لهذه المدارس لا محاباة فيها ، حتى يتهيأ للقارىء أن يقف على المعالم الرئيسية لكل منها في غير توسع مربك ، ولكن بالقدر من التجسيم الذي يعطي لونا لهذه الصورة . »

وهذه المدارس المعاصرة التي تتوزع ميدان علم النفس فيما بينها ، إن دلت على شيء ، فعلى حداثة هذا العلم ، وعلى أن موضوعه لم يتعين ، ومنهجه لم يتضح ، وغايته لم تتحدد بعد . ولا بد أن تمر عشرات السنين قبل أن يتأدى الصراع القائم بينها إلى موضوع لعلم النفس محدود ، ومنهج واضح ، وغاية معلومة ،

والمسرحية فكاهية ، وهي كذلك بجهود الممثلين وحركاتهم أكثر مما هي بالحوار ، فأنت تحس في المواقف المختلفة بالمادة « الخام » التي لم يصنع منها ما تصلح له من الفكاهة ، فالحوار ضعيف فاتر من هذه الناحية وإن كان الممثلون يبثون فيه شيئا من الحرارة ، وكان يخيل إلى أن الممثل الظريف فؤاد شفيق يعاني ضيق الحيز الذي وضع فيه فيحاول أن يوسعه ولكنه يطبق عليه .

أما إخراج الرواية فهو الذي كسا عظمها لحما وجعل لها روحا ، من حيث تنسيق المناظر وتوزيع الأضواء وتحريك الممثلين والممثلات ، فقد بدت المناظر موافقة رائعة معبرة ، فالشاهد يرسل بصره إلى المسرح في المشهد الأول حيث بهو الاستقبال في القصر ومن ورائه حديقة غناء ، فلا يخالجه شك في حقيقتها وما هي بطبيعة الحال إلا رسوم وأضواء ، ومن المناظر العجيبة منظر الشرفة تبدو منها حمرة الشفق تارة ويرسل إليها القمر أشعته تارة أخرى ، والابداع الفني في تهيئة المنظر للموقف وملاءمته لأحوال من يتحركون فيه والاستعانة به على التعبير وإبراز المقصود منه . وللأستاذ زكي طليمات طريقة لطيفة في تقديم شخصيات ثانوية صغيرة ينعكس عليها جو الرواية ، فالجو هنا كله رياء ونفاق ، وهذا الغلام (رضوان) الذي يقول أبوه إنه ملاك طاهر والذي يتقضى ويطرق أمام السيدات ، هو أيضا يسير في ركاب الرياء ، بل يجسمه ، إذ هو لا يلبث أن يسطو على الخادمة اللعوب ويهرب معها .

وقد أدى الممثلون والممثلات أدوارهم بجد وإخلاص ، ووفق أكثرهم ، فكان حسين رياض بارعا في تصوير الشخصية التي تدور عليها المسرحية وقد اندمج فيها كل الاندماج . وكان أحمد علام موفقا في تمثيل الرجل الحازم الحذر كما كان ظريفا في إشاراته ونبرات صوته ذات المعنى الذي يلوح إليه ، ولكنه كان فاترا أمام الفتاة التي تحبه ويحبها . أما عمر الحريري ، وهو من خريجي معهد التمثيل ، فقد أثبت أنه دم جديد نابض . وكانت زينب صدقي طبيعية مجيدة في تمثيلها وإن كان الدور غير ملائم لها ، وهو دور امرأة تثري شابا وتدفعه إلى محاولة اقتناصها ، وقد أمكن أن تبدو رشيقة خفيفة الحركة ولكن الصوت وظلال الشخصية كانت بعيدة عما يتطلبه الدور من بعض الصبا والشباب .

عباس خضر

يتفرغ العلماء بعد الوقوف عليها إلى تناول موضوعات جزئية لها صبغة موضوعية داخل هذا الاطار الذى تكون معالمه قد ونحت كما هى الحال فى العلوم الطبيعية .

والكتاب يقع فى سبعة فصول :

الأول : ماوراء خلافاتنا الجارية

الثانى : سيكلوجيا الاستبطان والمدرسة الوجودية .

الثالث : السلوكية .

الرابع : سيكلوجيا الخشطات أو الشكلية :

الخامس : التحليل النفسى والمدارس الملحقة .

السادس : مذهب القصد أو علم النفس الهورمي .

السابع . وسط الطريق

ويستهل المؤلف كتابه بالحديث عما يسميه « النظام القائم » Established order الذى كان يسمى وقت انتشاره وذيوعه ، علم النفس الحديث ، تميزا له عن سيكلوجيا العصور الوسطى وسيكلوجيا ديكارت وهوبز وليبنتس وغيرهم . وهذا « النظام القائم » ارتباطى فى أساسه . والارتباطيون فى علم النفس هم الذين حاولوا فى القرن الثامن عشر ، ومستهل القرن التاسع عشر أن يردوا جميع العمليات العقلية إلى عملية الارتباط Associatio أو التداعى وحدها ، بدلا من ردها إلى أساس عام من الحركة كما فعل هوبز مثلا ، حينما فسر هذه العمليات تفسيراً « جعلها فى صف واحد مع العمليات الفيزيقية ... فالحركة الخارجية تقع على أعضاء الحس فتتصل بالأعصاب والمخ والقلب ؛ والحركة الداخلية — عند ما تبدأ — تستمر بحكم القصور الذاتى Inertia على هيئة ذكريات وأفكار » ص ٥١

ويعرض المؤلف لما كان لعلمى الكيمياء ، والفيزيولوجيا من تأثير كبير على مناهج علم النفس فى القرن التاسع عشر ، بعد أن عرض علينا ما كان لعلم الطبيعة من أثر واضح عليها فالكيمياء أوحت بفكرة « كيمياء العقل » mental shimistry ، التى تحلل مركبات العقل ، كما تحلل الكيمياء المادة إلى عناصرها الأولية وبعد إرعاصاً لما سمى بالتحليل النفسى فيما بعد . أما الفيزيولوجيا فقد أوحت بفكرة « التجريب » فى علم النفس ، فكان ميلاد أول معمل لعلم النفس التجريبى ، أنشأه فنت فى ليبتسك سنة ١٨٧٩ وكانت ثورة السيكلوجيا التجريبية على النفس السابق عليها من حيث منهجه ومستواه العلمى أكثر منها على نظريته . فبينما قنع عالم النفس السابق بأن يستعين على البرهنة بالذاكرة وخبرته الشخصية العامة مع ما فيها من عدم الثقة ، إذا بعلم النفس الجديد يصر على أن تقوم حقائقه على ملاحظات مسجلة ومحددة » .

ويتابع المؤلف حديثه عن المؤثرات الخارجية المختلفة ، التى استهدف لها علمنا الناشىء . فيعرض لكل من البيولوجيا العامة — وعلى الخصوص نظرية التطور Theory of EVolurion — وما كان لها من ثورة على علم النفس القديم ؛ وعلم الطب العقلى psychiatry وما كان من انقسام اطبائه إلى معسكرين : نفسيين psychists يبحثون عن أسباب المرض فى العقل ، وجسميين somatists يرجعونها إلى اضطرابات فى المخ . ثم يبين ما كان من جانب علماء النفس من محاولات جدية — كرد فعل لهذه المؤثرات الخارجية — لفصل هذا العلم عن الفلسفة ، وعن غيره من العلوم التى لها به صلة قريبة أو بعيدة .

وقد كان علماء النفس فى أواخر هذا القرن يعرفون علمهم بأنه علم الشعور science of consiousness ، وبالتالى كانوا يتخذون الاستبطان منهجاً لهم . ثم جاء القرن العشرون الذى حاول المشتغلين فيه بعلم النفس أن يثوروا على هذا « النظام القائم » فى القرن الماضى متلمسين ما فيه من مثالب وهنات ؛ « فتمزقت بينهم إرباً سيكلوجيا القرن التاسع عشر القديمة السكينة تمزقاً لطيفا ، ونشأت مدارس تعارضت مع بعضها البعض تماماً كما تعارضت مع علم النفس القديم » ونجم عن ذلك فترة نشيطة جداً ذات نظام لم يقرر بعد » ص ٥٧ وحاولت كل من هذه المدارس أن تحدد موضوع علم النفس ، وأن تتخذ لنفسها منهجاً خاصاً يتأدى بها إلى نتائج حقيقية حاسمة . وهى قد أجمعت — وإن اختلفت فى الوسيلة — على إعلان الثورة على هذا « النظام القائم » الذى يصور علم النفس باعتباره « دراسة للشعور » متخذاً « الاستبطان » منهجاً يستخدمه فى دراسة الانسان .

فعلم النفس كما يراه السلوكى مثلا « هو شعبة تجريبية موضوعية خالصة من العلم الطبيعى . وهدفه النظرى هو تنبؤ السلوك وضبطه . وليس الاستبطان جزءا رئيسياً من مناهجه ، ولا القيمة العلمية لحقائقه تقوم على استعدادها لأن تعبر عن نفسها بألفاظ الشعور ...

ولعله لا بد قد حان الوقت الذى يطرح فيه علم النفس كل إشارة إلى الشعور . إذ لم تعد به حاجة بعد إلى أن يخدع نفسه فى حسبان أنه يجعل الحالات العقلية موضوعاً للاحظته » ص ١٤٠

وبينما السلوكيون يحاولون إبعاد الشعور عن ميدان علم النفس ويقصرون دراستهم على السلوك وحده ، نرى فريقاً آخر من العلماء ، لم تنشأ مدرستهم عن علم النفس ذاته ، وإنما نشأت عن ابحاث الطب العقلى psychiatry ؛ تلك هى مدرسة التحليل النفسى ، وعلى رأسها الزعيم فرويد ، التى اتخذت ما يجرى فى اللاشعور ، من ذكريات وأحلام ، موضوعاً لدراستها بوسائلها الخاصة .

ولقد حاولت مدرسة أخرى جديدة هى مدرسة القصد purposiVtst School وعلى رأسها مكدوجل ، أن تتخذ لعلم النفس موضوعاً من الدوافع الانسانية ـ من غرائز وعادات وانفعالات وأفعال منعكسة ثائرة بذلك على النزعة العقلية التى كانت تسيطر على هذا العلم وعلى الايمان بأن منهج الاستبطان هو وحده المنهج الصحيح فى علم النفس .

وليس معنى هذا أن علماء النفس القائلين بالشعور موضوعاً وبالاستبطان منهجاً لعلم النفس ، قد قنعوا بالثورات المختلفة المتلاحقة من جانب هذه المدارس على مذهبهم ، وإنما يعدلون فيه بالقدر الذى يظهرهم وسط الميدان وكأنهم أصحاب مدرسة جديدة ؛ فالى جانب ايمانهم بالاستبطان قالوا بأن علم النفس هو علم خبرة الفرد the science of IndIdiduals experence مهمته « وصف هذه الخبرات وتحليلها ، ومقارنتها ، وتصنيفها ، وترتيبها فى نظام دقيق . فكانت الخبرات تدرس وكأنها موجودات Existences وبعبارة أخرى ، أن علم النفس الوجودى كان يجد مقمة فى الفرد كصاحب EXpereincer ، وليس كقائم بالعمل performer ؛ ص٧٧

ونشأت مدرسة أخرى هى مدرسة الجشطلت Gestott أو مدرسة الصيغة Confeguration التى ثارت على المذهب الارتباطى من حيث عنايته ، على الخصوص ، بالجانب العقلى من الحياة ، ومن حيث أنه « أخذ بالاحساسات البسيطة على أنها العمليات الأولية ، التى منها تتركب الخبرات والأفكار المركبة » ص ١٧٤ . كما أن هذه المدرسة ـ على العكس من السلوكية التى نادت بتحليل السلوك لا الخبرة ـ قد اطرحت ، على الاطلاق ، منهج التحليل ، سواء منه ما اختص بالسلوك أو الخبرة . وقد رفضت هذه المدرسة كذلك فكرة المعانى باعتبارها فكرة مضللة ، كما رفضت الاحساسات ، وعلى الأقل الأولية منها على أنها عناصر للخبرة التى سبق لها أن رفضتها هى الأخرى

* * *

تلك هى الخطوط الرئيسية لمدارس علم النفس المعاصرة ، التى عرض لها وودورث فى كتابه الذى لم يشأ مؤلفه أن يقف به عندها ، دون أن يعرض علينا شذرات من مذاهب لعلماء مبرزين فى ميدان علم النفس ، ولكنهم مع ذلك لا ينتمون إلى هذه المدرسة أو تلك .

ففى بريطانيا : نجد الأستاذ سبيرمن بجامعة لندن الذى ولد سنة ١٨٦٣ ، والذى احتدم الجدل بينه وبين ثورانديك حول طبيعة الذكاء . كما نجد الدكتور . ش . ص . ما يرز بلندن وكان مديراً لأول معمل سيكلوجى فى بريطانيا ـ معمل كمبردج ثم عين مديراً لمعهد علم النفس الصناعى القومى .

وفى ألمانيا : نجد الأستاذ فليكس كريجر Filix Kreuger « ولد سنة ١٨٧٤ » ، الذى يعارض الجشطلت « فيبين أن الشكل الذى ندركه فى أية لحظة هو ذاته متضمن فى شعور كلى ؛ فالشعور عنده حقيقة أكثر جوهرية من الصورة الخلقية » . كما نجد الأستاذ . ا . اشبرانجر ESpranger بجامعة برلين (ولد سنة ١٨٨٢) . ومن تلاميذ ميلر Muller اثنان هما فيبنش E R Jaensch الأستاذ فى ماربورج ، ودافيد كاتس DaVid Katz الأستاذ فى رستوك . كما يذكر المؤلف الاستاذ وليم استرن wStern تلميذ ابنجهاوس .

وفى سويسرا : نجد الأستاذ كلاپارد Claparéde الذى أنشأ معهد روسو لدراسة الأطفال .

وفى ايطاليا نجد Benussi الأستاذ السابق بجامعة بادو . كما نجد الأستاذ S de sanctis المشهور بتخصصه فى الأمراض العصبية والنفسية ، والأستاذ كيسوا الذى كان تلميذا ، قديما لفنت . والأستاذ Fikesow المعروف بقياسه المجهود وبدراساته للتعب .